قلوب تتقلب !

نشأت فى كنانة حول الطائف ومكة ، وقد باكرها النعيم فشبت صحيحة جيلة ، ورضعت أفاويق البلاغة من قومها ، فنشأت فصيحة بليغة ، خطبها سيد قرشى ، من أشراف مكة وعصبة النبى ، وبنى بها فطاب حالهما ، وصفا عيشهما . وقرا فى المدينة زمنا أسعدهما الله فيه بغلامين كانا بهجة النظر وأمنية الفؤاد .

اختار « الامام على » زوجها ليكون عاملا له على « اليمن » يجبى خراجها . ويقوم بشعائر الدين فيها ، فابتهجا بالمنصب الرفيع والحظ المقبل ، وانتقلت الاسرة إلى مقرها الجديد . إلى اليمن ، واليمن جنة العرب وروضة الجزيرة . هواؤها رخى وتربها ندى ، وفاكهتها كثيرة ، وجدا فيها مجالا للمتعة ، ومراحا لطفليهما العزيزين يطلقانهما فى الصباح لينعما بشمس الشتاء الضاحية ، ويتمتعا بمناظر الوديان ، ومظاهر الجنان ، وقد حل فيهما من بهجة الازهار ، ونغمة الاطيار ، وانعطاف الاغصان ، وانسجام الظل ، مشابه : فاستحار جمالهما ، وتمت آدابهما ، واستوليا على كل قلب ، واختطفا النظر من كل عين .

غاب أبوهما عن مدينته لبعض شئونه ، وخرجا كعادتهما يتنزهان وإذا رجل يقبل عليهما مسترق الخطى ، ويتطلف بهما ويغريهما بالسعى معه ، وإذا به يقبض عليهما ويكم أفواههما ، وإذا به قد انتضى سكينا مرهفة وقضى عليهما ، ثم أطلقها ضحكة عالية قائلا:

« الآن تمتع بالحياة يا عبيد الله ! »

انتظرت « جويرية الكنانية » ولديها يؤوبان اليها مع الغداة ، ولكنهما تأخرا على غير عادتهما ، فتربصت طويلا ، منصتة إلى بابها لعل طارقا يطرقه ، وكلما لعب به الريح هرولت اليه وفتحته باسطة ذراعيها ، ولكنها فى كل مرة تعانق الهواء : ولما فرغ فؤادها دفعت خادمتها لتقصهما ، وما كادت الخادم تسير خطوات حتى اندفعت وراءها سافرة حائرة ، وطافت بمعاهد البلد وملاعبه ، وكل فتى تتوسمه فاها ، وكل ندى تظنه قد حواهما : ولبس الأصيل ثوبه المعصفر ، وزحف الليل بسواده وما رجعت بطائل غير هم ملأ قلبها وأسى قلقل كيانها ، ومضى يوم ويومان وثلاثة وهى تطوف وتقول :

ألا تمن بين الأخوين أمهما ... هى الثكلى تسائل من رأى ابنيها
وتستبق فما تبقى فلما استيأست رجعت ... بعبرة والهٍ حرّى تتابع بين ولولةٍ وبين مدامع تترى

وفى كل يوم تزيد شدتها وتذكو سكرتها ويضيق افقها . وفى يوم اقتحمت عليها السيل فتاة ، واخبرتها بما سمعت عن قتل « بسر ابن أرطاة » لولديها . فان معاوية أخرجه لتكل بشيعة على ، فمضى فى سبيله حتى انتهى الى اليمن . ولما لم يجد عاملها يتلقى عقاب كيده اقتص من ولديه وذهب بشفرته .

وكان هذا كافيا لفقدان وعيها ، وطيران عقلها ، ولكنها أبت ان تصدق ، وألا فكيف يموت عزيزان فى لحظة ، ثم هامت على وجهها . تناشد المواسم والمجامع بقولها :

يا مَنْ أحسّ بُنَيَّىَّ اللذَيْنِ هما ... كالدرتين تشظى عنهما الصدف
يا مَنْ أحسّ بُنَيَّىَّ اللذَيْنِ هما ... سمعى وطرفى فطرفى اليوم مختطف
يا مَنْ أحسّ بُنَيَّىَّ اللذَيْنِ هما ... مُخُّ العظام فمخى اليوم مزدهف
نُبِّئْتُ بُسْراً وما صدقت ما زعموا ... من قولهم ومن الافك الذى اقترفوا
انحى على ودَجَىْ طفلىَّ مرهفةً ... مشحوذةً وعظيم الافك يقترف
مَنْ دَلَّ والهةً حرّى مُتَيَّمَةً ... على حبيبَىْ غابا اذهضى السَّلَف

أما عبيد الله بن العباس فقد انتزع منه حشاه ، عزف عن الدنيا وأحس زخرفها شوكا ففارقته الحماة كما تنبأ بسر بذلك .

آه لو ملك القاتل ! أذن لنبش عن قلبه وان لم يكن من قبل فظاً . آه من معاوية ورهطه ! قوم عزب الايمان من قلوبهم واشتروا دنياهم بدينهم . آه ! وآه على نجمين قد أفلا فى ساعة من نهار . هذا ما يثور بفؤاده .

تبدل برجل آخر سقيم الجسم دقيق العظم مشتعل الرأس . وشاطره همه ابن عمه على ولعن القاتل ودعا عليه بالجنون والمروق وأجاب الله دعوة وليه . فاذا بسر مخبول يهذى ممسكا بسيف من خشب وزق من جلد منفوخ مايفتأ يضربه بسيفه حتى تمزق قواه ، وكان خبله يقوى تارة ويضعف أخرى

مضت سنوات ودخل بعدها عبيدالله على معاوية ابان ملكه ، وكان عنده بسر ، فقال له عبيدالله : « أأنت قاتل الصبيين أيها الشيخ ؟ » قال بسر : « نعم أنا قاتلهما » فقال عبيد الله : « أما والله لوددت ان الارض أنبتتنى عندك » قال بسر : « فقد انبتتك الآن عندى » قال عبيدالله : « ألا سيف ؟ » فقال بسر : « هاك سيفى » فلما أهوى عبيدالله الى السيف ليتناوله أخذه معاوية ثم قال لبسر : « أخزاك الله شيخا ، قد كبرت وذهب عقلك » « ذاك رجل من بنى هاشم وقد ترته وقتلت ابنيه ، تدفع اليه سيفك ؟ انك لغافل عن قلوب بنى هاشم . والله لو تمكن منه لبدأنى قبلك . » فقال عبيدالله : « أجل والله وكنت أتى به . . ؟ »

احمد احمد التاجى